واقع اللغة العربية في الجزائر (رهانات وتحديات)

د. صالح الدين ملفوف

اللغة في أبسط تعريفاتها ظاهرة إنسانية فريدة، وهي عبارة عن منظومة من العلامات الدالة شفهية كانت أو كتابية أو إشارية أو رمزية... أو غيرها١، وهي وسيلة للتواصل بين بني البشر والتعبير عما يدور في أذهانهم ونفسياتهم من أفكار ومشاعر وأحاسيس، وهي قبل كل شيء الوعاء الذي يحفظ ذاكرة الأمة وهويتها من الزوال والاندثار وحتى الانصهار والذوبان في الآخر، فهي «أصدق مؤرِّخ لحياة هذا المجتمع وثقافته وحضارته، وذاكرته التي تختزن عنه كل ما يتعلق بعاداته وتقاليده وسلوكه، وإيمانه وكفره، وغناه وفقره، وتعلمه وجهله، وأدبه ومهارته وفنِّه، بل إنها ذاكرة تحتفظ أيضا بأدق الصور والمعلومات عن حياته اليومية، وعن بيئته ومناخه وطبيعته الحية والميتة.»٢. وللغة سلطة مهيمنة على كل من يستخدمها في حياته اليومية، بوصفها الرصيد المعرفي الذي يُوَجِّهُ تصوراته وقِيَمه، وهذا ما دفع ببعض المفكرين إلى اعتبار «القوم يتكلمون كما يفكرون ويفكرون كما يتكلمون.»٣.

تُعَدُّ اللغة العربية إحدى اللغات السامية التي انحدرت من الأصل الواحد الذي انحدرت منه العبرانية والسريانية والحبشية، وهي في أصلها ثنائية اشتقاقية ومن ثَمَّ غنية واسعة الغنى، يزيد في غنَاهَا ما يجري فيها من إبدال وقلب ونحت... وما إلى ذلك. وكانت اللغة العربية في القديم لهجات تمازجت فكان منها لغة فصيحة دارت على ألسنة الشعراء والخطباء٤.

وقد دَوَّنَتْ اللغة العربية اسمها بأحرف من ذهب على صفحات التاريخ بما قدمته للحضارات والأمم من إسهامات في شتى الميادين، وكانت الوسيلة الفعالة والمساعدة على الإبداع والتقدم، حين ازدهرت حركة التأليف والتدوين والترجمة شرقا، وأُسِّسَتْ المدارس والجوامع في بلاد الأندلس وغربا. ولأن دوام الحال من المحال، فقد بدأت محنة اللغة العربية مع ما اصْطُلِحَ على تسميته بعصر الانحطاط أو الضعف، واشتدت وطأة المحنة مع الحركة الاستعمارية التي سعت بكل ما تملك للقضاء عليها وإحداث القطيعة بينها وبين أبنائها، فبدأت بتجريم كل من يتكلم بها أو يُعَلِّمُ، تماما مثلما حصل عندنا في الجزائر حين سنت فرنسا قانون "شوتان" سنة ١٩٣٨م، القاضي باعتبار اللغة العربية لغة أجنبية في الجزائر.

لقد طبقت السلطات الاستعمارية الفرنسية بالجزائر قانون "الأنديجينا" قلبا وقالبا، ولم تكن شعارات الحرية والإخاء والمساواة التي تتشدق بها تعدو أن تكون مجرد ستار يحجب أعمال التجهيل والتمييز العنصري الدنيئة المُمَارَسَة في حق الشعب الجزائري، ولو أننا لا نعدم تلك النوايا الحسنة التي تَمَتَّعَ بها بعض المعلِّمين الفرنسيين تجاه متعلِّميهم من الجزائريين، والتي لم يكن لها عميق التأثير والأثر مقارنة مع ما كان يتحلى به السواد الأعظم منهم، وكان نتاج ذلك العديد من المتخلفين الذين نادرا ما تجاوزوا المرحلة الابتدائية، بصرف النظر عن بعض المحامين والأطباء والقضاة والعسكريين من أبناء القياد والكولون.

عدة تعديلات فرنسية في برامج المدرسة المسماة بالأهليَّة، خاصة في إطار مشروع قسنطينة الذي وضعه الجنرال ديغول مابين ١٩٥٨م و١٩٦٢م، وجدت الدولة الجزائرية الفتية نفسها أمام مشهد شديد الغرابة والتعقيد، فقد أنتجت مخططات تلك البرامج السامة أطفالا مُشَوَّهِينَ ومُعَوَّقِينَ سلوكيا وذهنيا، ولازالت آثار هذا المشهد المريع بادية حد الساعة على العديد من الإطارات والموظفين في الدولة، وكان من نتائج هذه المخططات الجهنمية ذاك الشرخ الحاصل بين فئتين: ارتأت الأولى أن الفرنسية غنيمة حرب تماما مثلما قال بذلك الأديب الراحل كاتب ياسين، في حين تمسكت الأخرى باللغة العربية التي سادت أرض الجزائر منذ عدة قرون، وكانت تُشَكِّلُ أحد مقومات الشخصية الجزائرية التي طالب بها صُنَّاعُ ثورة الفاتح نوفمبر من سنة ١٩٥٤م، وطالب بها رواد جمعية العلماء المسلمين من قَبْلِهم، كالشيخ عبد الحميد بن باديس، والشيخ البشير الإبراهيمي، والطيب العقبي... وغيرهم.

استبشر الناس خيرا بالمستقبل المشرق

الذي ستؤول إليه اللغة العربية بعد نيل الجزائر لاستقلالها وحريتها في الخامس جويلية من سنة ١٩٦٢م، وكان من المتوقَّع أن تُتَّخَذَ قرارات حاسمة في هذا الشأن، وبالفعل بدأت الدولة الجزائرية الوليدة في سَنِّ القوانين ورَسْم الخطط التي من شأنها أن تُثَبِّتَ دعائم لغةَ الضاد في البلاد وتُرْجِعَ المكانة الحقيقية لها، بيد أن هذه الجهود وتلك بقيت بعيدة عن طموحات الشعب الجزائري وآماله الكبيرة، فقد برزت إلى السطح معطيات مخالفة تماما خلال السنوات التي أعقبت الاستقلال، ولم تعد وسائل الاعلام والاتصال تكافح مثلما سُطِّرَ لها للفكاك من تبعية الكولونيالية الثقافية واللغوية، لأن الأولويات انحصرت في بناء ما دمره الاحتلال وزبانيته من بنايات وعمران، وهنا بالذات طغت على الإعلام وأجهزته ثنائية لغوية عكست انقسام النخبة الوطنية المثقفة مابين "مُعَرَّبٍ / Arabophone" و"مُفَرْنَسٍ / Francophone".

إن أولى التحديات التي تواجه القائمين على شئون اللغة العربية بالجزائر هو الصراع المرير مع اللغات الأجنبية التي تعمل تحت غطاء استلاب ثقافي جديد×، يمكن أن نمثِّل له اليوم بالحركة الفرنكفونية الرامية إلى التمكين للفرنسية في البلدان الناطقة بها ومنها بعض المستعمرات القديمة، فبواسطتها تفرض وجودها اقتصاديا واجتماعيا وثقافيا وعلميا، بطريقة يصعب معها تحرر الفرنكفونيين المنضوين تحت شرعتها من سطوتها والتبعية لها، وهذا ما يفسر التكريمات والتنويهات التي كانت تُغْدَقُ على "المرضي عنهم" من المفكرين والأدباء أيام الاحتلال الفرنسي، تماما مثلما حصل مع الطاهر بن جلون الذي صَرَّحَ بأن الفرنسية هي التي تُعَبِّرُ عنه وعن إحساسه، فانهالت عليه الجوائز الأدبية من كل حدب وصوب٥، وتماما مثلما هو حاصل اليوم مع بوعلام صنصال وغيره من الذين تنكروا للغتهم ولأبناء جلدتهم، ففي مقابل خسارة فرنسا لإمبراطورية استعمارية، عليها الآن أن تعوِّض بإمبراطورية ثقافية، لأن المدخل الحقيقي إلى الاستعمار الجديد هو الهيمنة اللغوية والثقافية٦.

ليت الصراع المشار إليه آنفا قد اقتصر على الجزائريين ودعاة الفرنكفونية، ذلك أننا نجد من بعض أشباه الجزائريين من يدعو إلى تغليب اللهجات العامية على حساب العربية، هذه الأولى التي بدأت تستشري في كيان المجتمع الجزائري من خلال الاستعمال الواسع لها، لاسيما في المؤسسات التعليمية والإعلامية والثقافية. ونتيجة لهذا الوضع، اكتسبت اللغة العربية عدوا جديدا كان من المفروض أن يكون حليفا وقت الشدة والض يق.

لم تعمل وسائل الإعلام والاتصال في الجزائر على «التطور اللغوي المفيد لِمَا لها من تأثير على الجمهور، فراحت تدعو أو تُوَظِّفُ العاميات بلا خجل، وفتحت المجال أمام الحصص الثقافية المُذاعة بالعامية، والحديث بالدارج في الأخبار واللقاءات العلمية والحصص الترفيهية، فهل تساءلنا عن نسبة المسلسلات العامية من الفصيحة، ونسبة الحصص الثقافية المذاعة بالفصحى، ونسبة الحديث بالدارجة عن الحديث بالفصحى في الأخبار واللقاءات العلمية والحصص الترفيهية؟.»٧.

ومهما يكن من أمر، لا يجب إغفال الدور الكبير لهذه الوسائل في نشر اللغة العربية وترقيتها، حيث لا ننسى تلك الجهود التي يبذلها العديد من الصحفيين يوميا من أجل خدمة هذه اللغة وإثرائها، بإخراج الكلمات الحضارية الجديدة من مخازن المجامع ورفوف المكتبات إلى الأماكن العامة والشوارع والمقاهي، من خلال ما يكتبونه للمستمعين والقراء من أخبار وأحداث، وما يسجلونه من وقائع عن الحياة العصرية٨.

إن واقع الحال لا ينطبق على البلاد الجزائرية ومؤسساتها الإعلامية فحسب، فحتى بعض القنوات الفضائية العربية الشهيرة وقعت في الخطأ نفسه، وشَاهِدُنَا على ذلك «البرنامج الذي كان يقدِّمه صحفي عربي كبير وكاتب قومي شهير على قناة الجزيرة. وقد كان حريصا ألا يتحدث فيه إلا بالعامية، وكأنما يتحدث فقط إلى أصدقائه وأقاربه في مصر وليس إلى كل العرب في مختلف ربوع المعمورة، وفي ذلك خسارة إعلامية كبيرة للمتحدِّث وللقناة ذات الطابع العربي الدولي.»٩.

إن هذا الهجر والاغتراب عن الفصحى يعود لأسباب ودواع كثيرة، منها ما نسمعه من اتهامات ودعايات مغرضة صادرة عن الجاهلين والحاقدين وبعض أشباه المتعلِّمين، الذين يَسِمُونَ العربية بالعجز والتخلف وعدم مواكبة روح العصر، وهذا ما تؤكده الدكتورة مها خير بك ناصر حين تقول: «... لأنها في رأي معظم المتعلِّمين غير قادرة على مواكبة التطور العلمي والحضاري، ولا تستوعب المصطلحات العلمية الحديثة، ولا تساعد

على فهم النظريات العلمية المتطورة، وهي في رأي بعض دارسي العلوم الإنسانية عاجزة عن التفاعل مع النظريات الألسنية الحديثة.»١٠.

إذا انتقلنا إلى المؤسسات التعليمية ألفينا الوضع أدهى وأمر، بسبب التقصير في حق اللغة العربية وعدم تخصيص الحجم الساعي الكافي لتعليمها في مختلف الأطوار، أو إعداد الوسائل البيداغوجية الكفيلة بتدريسها، ناهيك عن عدم تَقَيُّدِ بعض المدرِّسين باللغة العربية في مهمتهم النبيلة، فالمدرِّسون في مختلف الأطوار يجمعون إلى لغة الضاد تلك اللهجات العامية واللغات الأجنبية، مما يؤثر سلبا على العربية نفسها والمتلقين معا.

لا تقف الجامعة الجزائرية بمنأى عن هذا التقصير والتهميش الممارَس في حق اللغة العربية، فتلقين العلوم فيها يتم باللغات الأجنبية في أغلب التخصصات، لاسيما العلمية منها، فما عُذْرُ جامعاتنا التي ما تزال تصر على تعليم العلوم الطبيعية والرياضية بلغات الغرب؟. إن هذا الموقف من جامعاتنا يكشف عن اتهام للغة العربية بالقصور عن الوفاء بمطالب العلم الحديث، وهو اتهام ظالم من قوم أولى بهم أن يَتَّهِمُوا أنفسهم بالعجز عن ترجمة علومهم، لقصور منهم عن إتقان لغتهم القومية، وعن القدرة على الانتفاع بمرونتها١١.

ومن مؤسساتنا التعليمية وجامعاتنا، تتسع دائرة التهميش لتشمل المجتمع برمته، ذلك أن المتحدث باللغة العربية يجد نفسه غريبا ووحيدا في وسط لا يُحسن المارة في شوارعه الحديث إلا باللهجات المحلية، ولا تُجْرِي إداراته معاملاتها إلا باللغة الأجنبية (الفرنسية)، ولا تكترث مؤسساته الثقافية بما آلت إليه شئون العربية ولا تسعى إلى تقويم عودها، ولا تُعَلِّمُ مراكز تكوينه باللغة الأم كما ينبغي للحال أن يكون، ويعدو الأمر أن يجد كل من سَوَّلَتْ له نفسه استخدام لغة القرآن الكريم عرضة «للاستهزاء والسخرية، ومثله في ذلك كمثل الذي يخطب في الناس وهو يريد مخاطبتهم في أغراض بسيطة، فهو يخاطبهم وكأنه يقرأ من كتاب وقد رُسِّخَ في أذهان المعلِّمين أن اللغة العربية ليس لها إلا كيفية واحدة في التعبير، وهو المستوى الذي سمَّيناه بالإجلالي أو الترتيلي.»١٢.

كان لتعميم التعامل باللهجات المحلية واللغة الأجنبية نتائج سلبية ووخيمة على الوضع اللغوي في الجزائر، نذكر منها: تشويه اللغة العربية نطقًا وكتابةً، وإقحام مفردات وأحيانا تراكيب وجمل ليست لها أية علاقة بلغة الضاد، لا تستسيغها الأذن العربية السليمة، ولا يستحسنها الذوق العربي الخالص، فتبدو بها ضعيفة وركيكة، فهل يا ترى مثلا يرتضي الفرنسي للغته ما يحصل للغتنا؟!، بالتأكيد «لن يرضى الفرنسي أن يسمع مستهزئا بلغته، يظهر في الشاشة، أو يكتب في الصحف الفرنسية، مهما كانت درجته العلمية أو السياسية. وقد حصل هذا قديما عند العرب، بأن اللَّاحن في اللغة العربية يُستبعد إلى بلاد العجم. وهناك من يجري عليه العقاب شديدا. وهذا كله من باب التَّحَرُّزِ الذي كان يضعه النُّحَاةُ للغة العربية، ويتمثل ذلك في المحافظة على صفائها إلى درجة المغالاة.»١٣.

إن ما يزيد الكارثة هولا هو عدم تَحَمُّلِ الجزائريين من الطبقة العربية المثقفة لمسئولياتهم في الذود عن لغتهم وتخلِّيهم عن واجب الدفاع عنها، «واللغة العربية بما هي حامل للهوية الثقافية، وضامن لصيرورة الذات الحضارية، لا يتهددها شيء مثلما يتهددها صمت المثقف، وهو ينظر إلى الزحف اللهجي يكتسح مجالاتها الحيوية، ولاسيما في الإبداع الثقافي، وفي الحديث عن كل شأن ثقافي، مهما تقلصت أبعاده، أو انكمشت أحجامه، أو ضؤلت أوزانه، وليس من حق العرب في أن يواجهوا مخاطر الكونية الزاحفة المستشرية إلا بجبهة داخلية متينة، تستمد قوتها من التماسك اللغوي المطَّرد في أنساقه، والمنسجم بين أطرافه. فالثقافة معرفة وفن، والعرب الآن يفصِّحون المعرفة ما وسعهم الإفصاح، ولكنهم يلهجون الفن، إلا من رحم ربنا، وفي هذا يكمن نذير الانفصام.»١٤.

لقد اعترى الأمة العربية –والجزائر جزء لا يتجزأ منها– ضعف ووهن، انعكس في فتور علاقة اللغة العربية ببعض أبنائها، بعدما كانت مقوِّما أساسيا من مقومات الشخصية الوطنية والقومية، و«الخطر الحقيقي يكمن في ضمير الشعوب العربية، وهو متجسِّد في عدم الثقة بالنفس، وفي ضعف الانتماء الوطني أولا، والقومي ثانيا، وفي شدة الإعجاب بكل دخيل، ولو كان مشبوها، لأن الانبهار بما لدى الآخر من دون ملامسة جوهره، ومعرفة شيء من حقيقته، سببٌ أساسٌ في تشويه الفكر العربي وتخلِّيه عن هويته. وهذا من الأسباب التي تقود البعض إلى حالة من الانبطاح أمام أصحاب السلطة بأسلوب يتنافى وإنسانية الإنسان، وكرامة الفرد، مما ينذر بضياع أبسط مقومات الاعتزاز

بالنفس، وبخسارة بالانتماء الفكري، والتعويض عنه بانتماء نفعي إلى مجموعة لا تعترف بالقدرات، ليتحول إلى رقم في صناديق النفعية.»١٥.

على الرغم من أن اللغة العربية في الدول الناطقة بها قاطبة هي اللغة الرسمية –وهذا حال الجزائر مثلما ينص عليه الدستور–، إلا أن الواقع يشي أو يكاد بالعكس، فالمتجول في شوارع العاصمة وأزقتها «لا يستنتج أن اللغة العربية هي اللغة (الرسمية) للبلد. فاللغات الأجنبية تواصل اكتساحها واحتلالها لموقع السيادة والريادة على الخريطة العربية، في مجالات التعليم والإعلام والإدارات والمعاملات الحكومية، والمرافق الاقتصادية والتجارية والخدماتية. وهي لذلك معززة بجهود ومخططات ومؤسسات وتمويلات. وهكذا تستولي اللغة الإنجليزية على المشرق العربي، وتستولي اللغة الفرنسية على المغرب العربي.»١٦.

وإذا كان هذا وضع اللغة العربية المتدني والمتردي داخل أوطانها وبين أبنائها، فكيف السبيل في الخارج وهي الغريبة والدخيلة؟. هذا الحال دفع بالمنظمات العالمية والهيئات الدولية إلى التطاول عليها والتفكير الجدي في إقصائها والتخلي عنها، فقد بدأت بعض المنظمات التابعة للأمم المتحدة في تداول قرار حذفها من اللغات الرسمية المعتمَدة لديها، ومما شجع على ذلك عدم اعتماد بعض ممثلي العربية أنفسهم لغتهم الأم داخل هذه الهيئات، حرصا منهم على إظهار إحاطتهم باللغات الأجنبية، وإعلانا عن خضوعهم وخنوعهم لها، ناهيك عن تقاعس الدول العربية في الالتزام بتعهداتها المالية والبشرية، في سبيل دعم متطلبات استخدام العربية في أجهزة الأمم المتحدة وفروعها١٧.

من المعضلات التي تواجه اللغة العربية في أوطانها نذكر: غياب التخطيط على مستوى الهيئات العليا في البلاد، وهذا ما يظهر جليا في عدم وجود مشاريع مدروسة دراسة مُحَكَّمَةً وفعلية تقوم على شئونها، من: تعليم، وتطوير، ونشر، ووقوف في وجه المكائد والدسائس التي تُحاك ضدها، فبعض المسئولين في أعلى هرم السلطة وصُنَّاع القرارات لا يقومون بما يحيل على اهتمامهم الجِدِّي، وعلى هذا الأساس لابد من تشريف المراكز الرفيعة التي يشغلونها، ومضاعفة الجهود التي تبعث على الطمأنينة وصفاء السريرة تجاههم، لأن «المسألة اللغوية عموما، ومسألة اللغة العربية تحديدا، تستدعي وتستحق جهودا أكبر بكثير مما تأخذه الآن. ولا أراني مبالغا إذا قلت: إن قضية اللغة العربية تحتاج إلى صحوة وحركة، على غرار الحركة الإسلامية والصحوة الإسلامية. فهل نطمح إلى أن نشهد انتفاضة لغوية عربية، تُبَشِّرُ بمستقبل قريب للغة العربية في عصر العولمة؟... إن قضية اللغة العربية يجب أن تُرْفَعَ إلى مرتبة القضايا الكبرى للأمة، قضايا الوجود، والسياسة والتخطيط (الاستراتيجي) للحاضر والمستقبل. ويجب أن تُعَدَّ قضية حكومات وشعوب، لا قضية مهتمِّين ومتخصِّصين. نحن نرى أن مجامع اللغة العربية على جهودها وعطاءاتها الجليلة، تجد نفسها مشلولة أمام الواقع المتدهور لهذه اللغة، ذلك أنها دون أنصار، ودون تجاوب رسمي، ولا سند شعبي، ولا يكاد يعلم بقضيتها أحد.»١٨.

يضاف إلى كل هذه المعوقات الآنفة الذكر، عزوف أبناء العربية مؤخرا عن الإقبال عليها بسبب تقلص فرصهم وحظوظهم في الحصول على مناصب شغل في أسواق العمل، ما دامت النفوس المريضة تتحكم فيها الأهواء الدنيوية والمصالح المادية الضيقة، ناهيك عن أن خريجي معاهدنا وجامعاتنا بتكوين عربي لا يجدون أمامهم إلا مهنة التدريس في أطواره المختلفة، فتجدهم للأسف الشديد زاهدين في ذلك، ناصحين من يأتي بعدهم بالانصراف إلى اللغات الأخرى التي تضمن لهم فرص عمل أكبر وأكثر، إلا من هدى ربك ورحم.

إن الوضع الذي تعيشه اللغة العربية اليوم كله رهانات وتحديات فرضها المنطق المقلوب الذي يُنْظَرُ إليها به، ولن تقوم للغة الضاد قائمة إلا بتضافر جهود الغيورين من السياسيين وأهل العلم والمال، والبحث عن السبل الناجعة التي تمكِّنها من استرجاع مكانتها الحقيقية، ونحسب –برأينا المتواضع– أن أهم السبل تكمن فيما يلي:

١- تعريب المحيط العام قبل الخاص:

مخطئ من يعتقد أن مسألة التعريب يجب أن تبدأ بأجهزة الدولة من إدارة وتعليم وإعلام، لأن تعريب هذه المجالات والميادين لن يؤتي أكله إلا إذا كان مرفقا بتعريب الوسط الاجتماعي والثقافي والاقتصادي برمته، وهذا ما نادى به العديد من العارفين بخبايا اللغة، لأن الرهان الحقيقي يتعلق بتعريب المحيط

في علاقته بتعريب التعليم العالي خاصة والتعليم برمته عامة، لأن المحيط الاقتصادي وقطاعات الشغل تُفَضِّلُ توظيف من يتقن اللغة الأجنبية أو الفرنسية على الخصوص، «والتقليص من وظائف اللغة الوطنية بدعوى التنافسية منطق مغلوط. فأصغر الدول مثل هولندا وفنلندا والسويد... وغيرها تُعَلِّمُ بلغتها من الروض إلى الجامعة، وتشتغل بهذه اللغة. وليس الانفتاح على اللغات الأجنبية مدعاة لِتَفَرُّدِهَا بوظائف لغة العمل في الاقتصاد والاتصال... إلى آخره. فلا بد من تَدَخُّلِ الدولة، والتشريع اللساني، لحماية اللغة الوطنية، وفَرْزِ خطة لغوية ناجعة ومعقولة، لا تقضي على اللغة الوطنية تدريجيا.»١٩.

ومن هذا المنطلق، يجب أن تستعيد اللغة العربية دورها في الحياة العامة، وفي مسيرة الفكر الإنساني، بإخراجها إلى فضاءات أرحب، غير قاعات التدريس، والمساجد، والمجالس المتخصِّصة، وهذا ما نادى به الشيخ أبو الحسن الندوي حين قال بضرورة إخراج اللغة العربية من داخل حيطان الأماكن المقدسة إلى مواقف الحياة، مع الصيغة الإسلامية، فتجد اللغة العربية لونها وسِمَتَهَا الأصيلة المغصوبة٢٠.

إن تعميم استخدام اللغة العربية في المحيط العام يؤدي إلى الالتفاف حولها ويضمن وحدة الآباء والأبناء جنبا إلى جنب، يقول الدكتور إبراهيم أنيس في هذا الشأن: «لا تتم الوِحدة السياسية وتستقيم النُّظم الاجتماعية في شعب من الشعوب، إلا على أساس الوِحدة اللغوية، التي تصبح للشعب بمثابة رباط سحري، يجذب أفراده بعضهم إلى بعض، وليوثقوا الصلة بينهم، فيفكرون بعقل واحد، ويشتركون في مشاعر وأحاسيس موحدة، ويتعاونون على ما فيه خيرهم، وما يكفل لهم الأمن والاستقرار والرخاء.»٢١.

٢- التمكين للغة العربية على حساب اللهجات العامية:

لقد أغفل من تعالت أصواتهم باعتماد اللهجات العامية على حساب اللغة العربية تلك المزالق والشرور التي تلحق بهذا الإجراء، فالعامية مثلا لا تلبي حاجات مستعمليها أفضل من الفصحى بسبب فقرها وعجزها، ناهيك عن أن اختلاف اللهجات في مناطق الوطن الواحد وأحيانا في المنطقة الواحدة، يَحْرِمُ الكثيرين ممن لا يتقنونها الفهم الصحيح لما يقوله المتمكِّنون منها، وعلى هذا الأساس ينبغي أن تُتَّخَذَ هذه اللهجات «لا كأداة تعبير حي تلقائي، وإنما كوسيط ثقافي فإنها شقيق طبيعي يتحول على أيدينا إلى عدو إيديولوجي بكل قِيَمِه السلبية الناسفة.»٢٢.

إن أحسن رد على هؤلاء الذين يؤثرون استخدام اللهجات العامية على حساب العربية ما قال به الدكتور طه حسين: «أحب أن ألفت نظر أدبائنا الذين يطالبون بالالتجاء إلى اللهجات العامية، إلى شيء خطر ما أرى أنهم قد فكروا فأحسنوا التفكير فيه، وهو أن العالم العربي الآن وكثير من أهل العالم الشرقي كله يفهم العربية الفصحى، ويتخذها وسيلة للتعبير عن ذات نفسه، والتواصل الصحيح... ونسأل أنفسنا آخر الأمر أيهما خيرا أن تكون للعالم العربي كله لغة واحدة هي اللغة الفصحى، يفهمها أهل مراكش كما يفهمها أهل العراق، أم أن تكون لهذا العالم لغات بعدد الأقطار التي تتألف منها، وأن يترجِم بعض العرب لبعضهم كما يترجم بعض الأوربيين عن بعضهم... أما أنا فأوثر وحدة اللغة، وأثق الثقة كلها بأن لها النصر آخر الأمر، ورأيي غير متردد، أن وِحدة اللغة هذه خليقة بأن يجاهد في سبيلها المؤمنون، وبأن يُضَحُّوا في سبيلها بكل ما يملكون.»٢٣.

بيد أن هذه اللهجات التي استقوى حضورها لا يمكن حجبها من المشهد اللغوي في البلاد إلا بالتخطيط المحكم والقرارات الحكومية الجريئة، تماما مثلما فعلت الثورة الفرنسية حين استحثت الشعب ومختلف الدوائر الحكومية والتعليمية على نشر اللغة الفرنسية الفصيحة وتعميمها على أبناء الأمة الفرنسية، «عندما أقرت مبدأ التعليم الإلزامي العام، رأى رجال الفكر أن تكون مكافحة اللهجات المحلية والعامية من جملة الأهداف التي يرمي إليها التعليم بوجه عام.»٢٤.

٣- دور وسائل الإعلام في نشر اللسان العربي:

لا يخفى على أحد منا أن وسائل الإعلام الحديثة تستقطب شريحة لا يستهان بها من أفراد المجتمع، ومن هذا المنطلق يجب أن تعمل هذه الأخيرة على إشاعة اللسان العربي المُبِين من خلال البرامج المختلفة التي تُقَدِّمُهَا، حتى تتعود الآذان سماع هذه اللغة، فالعربية أولا وقبل كل شيء «أبرز عناصر هويتنا، وأقوى مقومات وحدتنا، لذلك يجب بذل الغالي والنفيس في سبيل تدعيمها وترسيخها. ومثل هذا لا يقوم به كُتَيِّبٌ ننشره، ولا جدول نصنع عنوانه: قل ولا تقل. إن ما ينهض

باللغة هو إشاعة التعبير الصحيح السليم على ألسنة المتعلِّمين والمذيعين والممثِّلين، وعلى صفحات الجرائد والمجلات والكتب العامة وكتب التعليم... وإن الإلحاح على تقديم المتعة باللغة الفصيحة، عن طريق الأغنية والتمثيل، لَيُقَدِّمُ للغة خدمة جليلة، قد تعجز عنها عشرات المؤلفات، في عصر انصرف فيه كثير من الناس إلى المشاهدة والاستماع.»٢٥.

إن بلوغ هذا الهدف الأسمى يتطلب استعدادا جادا وإعدادا جيدا، بِتَمَكُّنِ المذيعين والصحفيين من ناصية اللغة العربية وإتقانها، مفردةً وتركيبًا وأسلوبًا وصياغةً، وهذا ما أشار إليه محمد سويسي حين قال: «إنما اللغة أداة يكون لها من الصلاحية والنجاعة بقدر ما يكون لمستعمليها من الكفاءة والبراعة، وبقدر ما يكون زادهم العلمي أوفر ومستواهم الثقافي أعلى وأشمل.»٢٦.

٤- تعويد الناشئة على اللغة العربية والحديث بها:

من منطلق أن التعليم عند الصغر كالنقش على الحجر، على الأولياء والمربِّين تلقين النشء مبادئ اللغة العربية وتحفيزهم على الحديث بها بطريقة سليمة، بدايةً بتعليمهم قراءة القرآن الكريم وتحفيظه لهم في سن مبكرة، وبعضا من الأحاديث النبوية وأمهات الأشعار العربية، تقويةً لملكتهم اللغوية وربطًا لهم بماضي آبائهم وأجدادهم المجيد. وتلقين الطفل قواعد اللغة العربية السليمة في سنوات مبكرة يربِّي فيه حب هذه اللغة وحب الحديث بها في بيته ومدرسته ومجتمعه.

أما في مراحل التعليم الابتدائي، فعلى من يضع البرامج ويرسم المخططات أن يتنبه لنصوص القراءة الواجب اختيارها لتلاميذنا، بمراعاة الجانب المعرفي فيها والذي يسمح بتنمية العقول، وتربيتها على الأخلاق والمبادئ الصحيحة التي قامت عليها الحضارة العربية والإسلامية، وما يُعْنَى بما يُعِينُ على تكوين ملكة الإبداع والتمرن على الكتابة الأدبية الفنية، باختيار النصوص التي تتوفر على قواعد الكتابة الجمالية التي أبدعتها أقلام العظام من المفكرين والأدباء.

وأما في مراحل التعليم الثانوي، فالضرورة تحتم علينا تدريس خصائص اللغة العربية لتلامذتنا، بتناول نبذة عن تاريخ العربية، وعراقتها واستمرار تطورها ونموها بشكل مطَّرد مع المحافظة على ملامحها الأصيلة، وعن حقبة ازدهارها وثباتها الشامخ حتى في أحلك الظروف والعصور، ووفرة مفرداتها وثرائها بالمترادفات، وكثرة أبنيتها الاشتقاقية، مما يجعل منها أداة مطواعة للاصطلاح العلمي، بشكل يولد الاعتزاز بها والفخر بالانتماء إليها٢٧.

٥- صون اللغة وحمايتها:

تحتاج اللغة العربية اليوم وأكثر من أي وقت مضى إلى من يأخذ بيدها ويسهر على حمايتها من كل أشكال الاستلاب والتهميش، ومما يدخل في هذا الجانب إحاطة المسئولين وأولي الأمر اللغة العربية بجملة من القوانين والمراسيم، التي تضمن حمايتها من المعتدين عليها وعلى قدسيتها، على غرار ما تفعل الدول المحترمة التي تُكْبِرُ من شأن لغتها وترعى حرمتها وحرمة أهلها، فالفرنسيون مثلا «يتَّبعون في المحافظة على منزلة اللغة الفرنسية في العالم، وعلى عالميتها سياسة حمائية، تتمثل خاصة في إصدار القوانين والقرارات الرسمية عن مجلس الوزراء، ونشرها بالجريدة الرسمية للحكومة الفرنسية، وهي –في معظمها– قوانين وقرارات خاصة باستعمال اللغة الفرنسية، والتصدي للدخيل فيها من اللغة الإنكليزية، يضاف إلى ذلك أنهم قد خصوا اللغة الفرنسية وظاهرة الفرنكفونية المرتبطة بها بكتابة دولة، تُعْنَى بهما، وتعمل على دعمهما.»٢٨.

٦- الإرادة السياسية والقرار النافذ:

لن تُحَقِّقَ السبل المشار إليها آنفا بُغْيَتَهَا ومُنْيَتَهَا إلا إذا تحملت الحكومة مسئوليتها كاملة غير منقوصة نحو لغتها التي هي جزء من هويتها، وما تُسَخِّرُهُ من إمكانات بشرية ومادية تسترد اللغة العربية بها مكانتها ودورها المنوط بها، تماما مثلما قامت به في عصورها الذهبية، حين عملت على تنمية الفكر، وتطوير مناحي الحياة، بالإنتاج والإبداع، والتفاعل والتلاقح مع اللغات والثقافات دون إفراط ولا تفريط.

لا يمكن للغة العربية «أن تستعيد دورها بين لغات العالم الواسعة الانتشار، إلا إذا اتخذت الدول العربية سياسات لغوية واضحة، علمية الغايات والأهداف، خالية من الدعاية الظرفية. على أن تلك السياسات لا يمكن لها أن تثمر، وأن تكون ناجحة ما لم تتوحد في سياسة واحدة، يُتَّفَقُ عليها، وتُتَّخَذُ جماعيا. فإن اللغة العربية ليست لغة دولة دون أخرى، بل هي قاسم مشترك بين الدول العربية جميعا،

ولذلك فإن المشاريع التي تُحَقَّقُ للرقي بها وإلحاقها باللغات العالمية الواسعة الانتشار، ينبغي أن تكون مشاريع جماعية، وأن تكون الميزانيات المرصودة لها مشتركة.»٢٩.

٧- دعوة الهيئات اللغوية لتأدية واجباتها:

إذا كانت الهيئات اللغوية من مجامع ومجالس موجَّهة لخدمة اللغة العربية وحمايتها من هجمات الأعداء والحاقدين، فإن مسئولية المشرفين عليها أكبر وأثقل من عامة الناس والبعيدين عن الشأن اللغوي لسبب أو لآخر، والواجب في كل جهاز من هذه الأجهزة «أن يقود ركب التوعية والتنبيه... وأن يلفت النظر إلى كل مكر خَفِيٍّ يهدف إلى قطع صلة هذه الأمة بلغتها وثقافتها الأصلية... وأن يبذل جهده الصادق الواعي الفاهم ليجعل من الفصحى لغة التخاطب العامة،... وأن يقول كلمته واضحة صريحة لا يتلجلج: في لغة التعليم، ولغة التوجيه، ولغة التثقيف... وأن يُعَرِّفَ أبناء هذه الأمة بتراثهم،... من أجل أن ينطلقوا منه انطلاقا مبدعا، ويتعلموا من سلفهم كيف يكون الإخلاص للعلم، وكيف يكون المنهج العلمي الصحيح، وكيف ينطلق الفكر المكبَّل، من كل إسار يجعله يخلد إلى الأرض... وإنه لواجب –لو تعلمون– عظيم!.»٣٠.

إن المجلس الأعلى للغة العربية بالجزائر يستحق الإشادة والثناء على نشاطه الدؤوب في تنظيم التظاهرات العلمية من ندوات وملتقيات ومؤتمرات، وتوجيه القطاعات والمؤسسات الثقافية والاقتصادية إلى تطبيق اللغة العربية، ودعوة الضيوف من البلدان الشقيقة والصديقة لعرض تجاربهم وخبراتهم قصد الاستفادة منها والاستثمار الإيجابي فيها، ناهيك عن إثرائه لرفوف المكتبات الوطنية بالكثير من الكتب والدراسات التي تعالج المسألة اللغوية واللسانية في الجزائر، وتقديم الحلول الناجعة لمعالجة الشأن اللغوي الجزائري، والتمكين للغة العربية والتحذير من الأخطار المحدقة التي تتهددها من الداخل ومن الخارج.

ونافلة القول، نختم هذه الورقة البحثية ببعض التوصيات التي نرى من شأنها أن تعيد اللغة العربية إلى سِكَّتِهَا الصحيحة في الجزائر، ويمكن تلخيص هذه الأخيرة على النحو التالي:

١- إطلاق العنان للغة العربية في الأمكنة العامة، وإخراجها من قاعات الدرس والمساجد والمجالس المتخصِّصة الضيقة.

٢- ألا يتقاعس أبناؤها وألا يدخروا جهدا في الذود عنها من المؤامرات التي تُدَبَّرُ ضدها بالليل، وتسعى بشتى الوسائل والطرق إلى تعويضها باللغات الأجنبية أو اللهجات العامية.

٣- أن يحرص المدرِّسون على مخاطبة التلاميذ باللسان العربي الفصيح، حتى يتأسى بهم هؤلاء ولا يختلط لسانهم بالدارج والأجنبي.

٤- العمل على مضاعفة الحجم الساعي المُدَرَّس بها، وأن نتخير من نصوصها التعليمية ما هو مُكْتَمِلُ المبنى والمعنى.

٥- تقديم البرامج التلفزيونية والإذاعية بلغة عربية فصيحة، حتى يتعود جمهور المشاهدين والمستمعين عليها.

٦- تفعيل القرارات والمراسيم الوزارية والرئاسية المنادية بالتمكين للغة العربية في الإدارات المحلية والهيئات الأخرى، وضرورة تعميم استخدامها حفاظا على علاقة المواطن وإدارته باللغة الأم.

٧- العمل على التعريف باللغة العربية خارج أوطانها، والاهتمام بتعليمها لغير الناطقين بها، لاسيما الراغبين في تَعَلُّمِهَا، وما يشجع ذلك هو تزايد الاقبال عليها والرغبة في التمكن منها من قِبَلِ الأجانب بصرف النظر عن دوافعهم ومكنوناتهم.

الإحالات

١- ينظر. إدوارد سابير. مدخل للتعريف باللغة. ترجمة: سعيد الغانمي. في "اللغة والخطاب الأدبي". المركز الثقافي العربي. ١٩٩٣م. ص ٣٥.

٢- عبد العلي الودغيري. في الثقافة والهوية. دار البوكيلي. القنيطرة. المغرب. ١٩٩٥م. ص ١١.

٣- Adam Schaff. Langage et connaissance ;-anthropos٦٩، p٣٦.

٤- ينظر. لجنة من الأساتذة بالأقطار العربية. الموجز في الأدب العربي وتاريخه. دار المعارف. مصر. د ط. د ت. ص ١٢.

× المقصود في هذا المقام هو اللغة الفرنسية.

٥- عبد الله الركيبي. الفرنكفونية: مشرقا ومغربا. دار الأمة. الجزائر. ١٩٩٣م. ص ٩٤.

٦- هذا ما قال به بينو الوزير السابق في الحكومة الفرنسية.

٧- صالح بلعيد. دفاعا عن لغة الإعلام. يوم دراسي حول دور وسائل الإعلام في نشر اللغة العربية وترقيتها. المجلس الأعلى للغة العربية. الجزائر. ٢٠٠٤م. ص ١٢١.

٨- ينظر. أحمد بن نعمان. التعريب بين المبدأ والتطبيق. الشركة الوطنية للنشر والتوزيع. الجزائر. د ط. ١٩٨١م. ص ٤١٩.

٩- مصطفى المسناوي. جريدة المساء المغربية. عدد: ٥١٥.

١٠- مها خير بك ناصر. إشكالية اللغة العربية والعولمة في ضوء البنية اللغوية وكيميائية التحول. مجلة اللغة العربية. المجلس الأعلى للغة العربية. الجزائر. العدد ١٦. ٢٠٠٦م. ص ٢٨٤.

١١- للإستزادة أكثر: ينظر ما كتبه الدكتور عبد القادر فضيل عن وضع اللغة العربية في الجزائر في كتاب: اللغة والهوية والتعددية اللسانية. من ص ٦٩ إلى ص ٨٦.

١٢- عبد الرحمن الحاج صالح. اللغة العربية بين المشافهة والتحرير (بحوث ودراسات في اللسانيات العربية). منشورات المجمع الجزائري للغة العربية. الجزائر. ٢٠٠٧م. ص ٧٤-٧٥.

١٣- صالح بلعيد. اللغة العربية والصحافة. مجلة اللغة العربية. عدد: ١٦. ص ١٦٠.

١٤- المرجع نفسه. ص ١٤٢.

١٥- مها خير بك ناصر. إشكالية اللغة العربية والعولمة في ضوء البنية اللغوية وكيميائية التحول. ص ٣٠٤.

١٦- أحمد الريسوني. نداء من أجل العربية. مجلة إسلامية المعرفة. المعهد العالمي للفكر الإنساني. عدد: ٤٩. ٢٠٠٧م. ص ٠٨.

١٧- ينظر. المرجع نفسه. ص ٠٩.

١٨- م نفسه. ص ١٠-١١.

١٩- عبد القادر الفاسي الفهري. أسئلة التعريب ورهاناته في التعليم العالي بالمغرب وسوريا. منشورات جامعة سيدي محمد بن عبد الله. فاس. ١٩٩٩م. ص ٢٢.

٢٠- ينظر. محمد عبد السلام آزادي. التأصيل الإسلامي للغة العربية وآدابها في جهود الشيخ أبي الحسن الندوي. دار المنارة للنشر والتوزيع والترجمة. المنصورة. مصر. ط١. ٢٠٠٦م. ص ٦٦. وينظر كذلك: السيد رزق. اللسان العربي والإسلام. مجلة مجمع اللغة العربية المصري. عدد: ١٠. ١٩٥٨م. ص ١٤٣.

٢١- شكري فيصل. قضايا اللغة العربية المعاصرة (بحث في الإطار العام للموضوع). من قضايا اللغة العربية المعاصرة. المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم. تونس. ١٩٩٠م. ص ١٥٨.

٢٢- عبد السلام المسدي. العولمة والعولمة المضادة. كتاب سطور. مصر. ط١. ٢٠٠٠م. ص ٤٠٩.

٢٣- طه حسين. مستقبل الثقافة في مصر. ج ٢. ص ٣٢٦.

٢٤- ساطع الحصري. آراء وأحاديث في اللغة والأدب. دار العلم للملايين. بيروت. ١٩٥٨م. ص ٧٢-٧٣.

٢٥- مجلة اللغة العربية. عدد: ١٦. ص ١٩٤.

٢٦- من قضايا اللغة المعاصرة. ص ١٥٣.

٢٧- للاستزادة أكثر: ينظر ما كتبه الدكتور صالح بلعيد في مجلة اللغة العربية. عدد: ١٦. ص ١٨٧-١٨٨.

٢٨،٢٩- إبراهيم بن مراد. مكانة اللغة العربية بين لغات العالم الواسعة الانتشار. من قضايا اللغة العربية المعاصرة. ص ٢٢٤.

٣٠- محمد هيثم الخياط. في سبيل العربية. مكتبة وهبة. ٢٠٠٤م. ص ٦٥.